الفصل السادس عشر

الإرشاد والتوجيه فى التعليم

بقلم م . د . توابيو

يتضمن الإرشاد النصح والهداية والقيادة كما يتطلب معاونة دليل أو مرشد . ولا يمكن أن تتم عمليـة الإرشاد إلا إذا كان هناك طرفان ، يسعى الطرف الأول إلى غرض معين ويحاول الوصول إلى هدف محدود ، ويمتاز الطرف الثانى بالخبرة الخاصة والمعرفة اللازمة والمهارة الضرورية للحصول على الغاية المنشودة

وكل مرشد سواء أكانت مهمته هداية التلميذ فى تعلم المواد الدراسية ، أم نصح الفتى الناشىء فى اختيار مهنة تتناسب مع مؤهلاته وتوافق مقدرته حتى يستفيد من مواهبه أكبر فائدة ممكنة ، يشترط فيه أن يكون مزوّداً بأكبر مقدار من الخبرات التى اكتسبها بنفسه ، وأن يكون حاصلا على المعلومات الصحيحة الوافية ، وأن يتصف بالدهاء وحسن التصرف والحيلة الواسعة والصبر وسداد الرأى

ولا شك فى أن المرشد الذى يرشد النشء لاختيار مهن الحياة التى تلائمهم ، يجب أن يكون قد حصل على الخبرة الشخصية فى نوع المهنة التى ينصح الشاب بمزاولتها ، وإذا لم يكن هذا المرشد قد اختبر شخصياً المهنة التى يقوم بالإرشاد لها ، فلا بد له على الأقل من معرفة الصفات التى تحتاج اليها المهنة ، والفائدة التى تعود من مزاولتها ومجال التقدم فيها ، كأنه قد مارسها بنفسه ، كما يتحتم عليه أن يكون ملماً بجميع الطرق التى تؤدى إليها ، وأن يكون واقفا على جميع المراجع الخاصة بموضوعه واللازمة له

ومن أول واجبات المرشد أن يعرف الأهداف التى تناسب الفرد الذى يعمل على مساعدته وإرشاده أكثر من غيرها . ولكى يتمكن المرشد من أداء هذا الأمر ، يجب أن يقوم باختبار الفرد قبل أن يرشده ، إذ يتحتم عليه تقدير مستوى كفاياته ورغباته وطموحه وأوجه ضعفه وصفاته الشخصية . وعليه بعد ذلك أن يحدد أنواع

المهن التى قد يستفيد منها الفتى تبعاً لميوله الخاصة . و بعد ملاحظة جميع هذه الأمور والوصول إلى فهم الفتى أحسن فهم ومعرفة استعداده الخاص للمهنة التى يختارها ، يبدأ فى تفهيم الفتى نفسه جميع ما يكون قد وصل إليه من استنتاجات وحقائق ، ثم يدرب به بعد ذلك تدريباً خاصاً لكى يصل به إلى الهدف المنشود

و إن هذا العمل الابتدائى فى الكشف عن المهنة الصالحة للفرد قبل البدء فى عملية إرشاده ، لفى غاية الصعوبة نظراً لقلة المعلومات الصحيحة التى يمكن الحصول عليها عن الكفايات والمميزات الخاصة التى يلزم معرفتها لضمان النجاح فى كل مهنة من المهن. وليت الأمر يقف عند هذا الحد إذ لو فرضنا إمكان قياس جميع الكفايات وتقديرها، صعب علينا تحديد المهنة المناسبة لهذه الكفايات تحديداً دقيقاً

يصادف المرشد بعد ذلك صعوبة أخرى هى عدم إقامته مع الشاب الذى يقوم بإرشاده أو ملازمته له طول الوقت . و إذا لم تكن الإرشادات واضحة جداً ومستوفاة تماماً ، بحيث تؤدى إلى دفع الفتى للعمل ، وتشجيعه عليه فوق قيامها بمهمة الإرشاد ؛ فإنها لا تصل إلى الغاية المنشودة ولا تؤدى الفائدة المطلوبة منها .

العامل الأساسى فى التربية الحديثة

إن هذا التحليل الدقيق لخبرات الفرد وتجاربه ،واستعداده ، ومعلوماته المكتسبة ورغباته ، ومميزاته الشخصية ، التى ذكرناها ، وحكمنا بضرورة معرفتها قبل القيام بعملية الإرشاد ، يلزم إجراؤه قبل تقديم أى اقتراحات أو إرشادات لفرد من الأفراد فى الأنظمة التعليمية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الاقتصادية أو السياسية أو الجثمانية أو الروحية . وليس من الممكن تحليل الإنسان إلى شخصية مهنية و إلى شخصية دينية و إلى شخصية فنية وأخرى موسيقية وهكذا ، إذ يتكون الإنسان العادى من وحدة كاملة وشخصية غير مجزأة . ولذا يجب أن تؤدى التربية عملها فى هذه النواحى جميعها بالتضامن حتى يفهم الفرد كوحدة كاملة . وكل إرشاد يأتي على غير هذا الوجه إرشاد ناقص ونصح مشوه

لقد حدد فلاسفة التربية وعلماؤها أغراض التربية ، فوضعوا لها الاصطلاحات

العامة والعبارات الخاصة . غير أن هؤلاء اتفقوا على ضرورة اشتمال التربية على نظام اجتماعي واقتصادى أولا . وعلى ضرورة العمل على توافق الفرد مع هذا النظام بحيث تؤدى عملية التوافق إلى ارتياح الفرد ارتياحاً تاماً ، حتى يقدم أكبر فائدة ممكنة للمجتمع ثانياً . وبما أن توافق الفرد مع المجتمع لا يكون ذا فائدة مالم يستمر عاملا بعد مراحل الدراسة العرفية ، فإنه يتضح لنا إذاً أن عمل التربية يجب أن يؤدى نسبياً إلى تغييرات دائمة فى سلوك التلميذ العادى . والمعروف الآن أن مثل هذه التغييرات الدائمة تنتج عن مجهود التلميذ نفسه، وربما يتم ذلك بإرشاد المدرس وإثارته وترغيبه . إلا أن ذلك لا يتم من غير إرادة التلميذ نفسه على إتيان العمل ورغبته فى الوصول إلى غاية معينة

ومما سبق نجد أن الإرشاد وما يتبعه من عوامل يكاد يحتل المكان الأول فى أبحاث التربية وهو المكان الذى كان مخصصاً « للتعليم » . وقد صار ينظر إلى المعلم الآن كصديق شخصى ومرشد مخلص لكل فرد من أفراد الفرقة. وإن هذا التحول فى العلاقة بين المدرس والتلميذ لفى غاية الأهمية بالنسبة للنظام العملى الذى يتبع فى الخطط الدراسية . ولم ينتج التغيير فى هذا الشأن عن رغبة فلسفية فيما يستحسن أن تكون عليه الحالة فى التربية بقدر ما نتج عن الأبحاث العملية فى هذا الأمر ومعرفة حقيقة ما يتم أثناء تعلم التلاميذ .

أثر الاختبارات الموضوعية

قد لا نبعد عن الصواب كثيراً إذا قلنا إن إحدى العوامل التى أدت إلى قلب الرأى القديم القائل بأن التعليم هو كل مافى التربية ظهور الاختبارات الموضوعية واستعمالها لقياس معلومات التلاميذ فى المدارس ومهاراتهم وتقديراتهم الفنية . وما دام لا يعلم أحد بالتأكيد إذا كان التلاميذ يتعلمون أم لا ، يكون من حق كل مدرس أن يعتقد بكل إخلاص وسلامة نية أنه قائم بعمله فى التعليم كما يجب ، مهما كان نوع الأثر الذى يتركه فى عقول التلاميذ وفى أنظمتهم العصبية . غير أنه لما وصلنا إلى مرحلة إمكان قياس التغييرات التى تحدث فعلا فى التلاميذ فقد صار فى إمكاننا قياس الأثر

الذى يتركه المعلم فيهم . ومن الجائز أن نجد مدرس مادة ما ، يعمل جديًا كل يوم لمدة بضعة شهور فى تحضير دروسه وحث تلاميذه على العمل ثم يتبين بعد ذلك أنه لم يأت بأى فائدة يمكن قياسها فى نوع العمل الذى يؤديه التلاميذ. ولم يأبه مدرسون كثيرون بنتائج الأبحاث التي عملت فى هذا الشأن وما زلنا نجد بعضًا من هؤلاء الأفراد يقولون بأن تلك الأمور التى يتعلمها التلاميذ لا يمكن قياسها وعلى ذلك فلا يمكن الأخذ بطريقة القياس لتقدير مبلغ تقدم التلميذ ، ومن ثم لا يمكن الحكم على صلاحية المدرس. وكثيراً ما كان الرأى الأخير لا غرض له إلا حماية المدرس غير الكفء وخوف ذلك المدرس من ظهور نتائجه السيئة . ولو أننا نقر حقيقة بأن كثيراً من الأمور المهمة التى يتعلمها التلاميذ لا يمكن قياسها بدقة باستعمال أى اختبار من الاختبارات الموضوعية المعروفة حتى الآن ، غير أنه لا يمكننا أن ننكر أنه إذا لم يتعلم التلاميذ شيئًا ما ، كان من الخطأ القول بأن المدرس قد قام حقًا بأداء عمله ، ولهذا نجد رجال التربية على العموم بدءوا يأخذون جديًا بنتائج هذه الابحاث فى التعلم .

العوامل النفسية فى التعليم

لقد شرحنا فى مواضع أخرى من هذا الكتاب الأبحاث التجريبية التى عملت وأدت نتائجها إلى معلوماتنا الحالية فى عملية التعليم . وسنذكر هنا خلاصة الأبحاث المذكورة مع الاهتمام ببيان علاقتها بموضوع ارشاد التلاميذ وتوجيههم . ونظراً لما قدمه الدكتور ادورد ثورندايك من معلومات مفيدة ، ولما بثه فى الآخرين من نشاط لعمل البحوث فى عالم التربية ، نذكر خلاصة أبحاث هذا العالم للتمثيل على أثر النتائج التى وصلت اليها الأبحاث الجديدة فى تعديل القواعد القديمة فى عملية التعلم . فقد نشر فى سنة ١٩١٣ قوانين أربعة سماها « قوانين التعلم » وهى :

(١) قانون التكرار القائل بأنه كلما تكررت استجابة ما لمنبه واحد اشتد الاتصال بين المنبه والاستجابة وتأصل

(٢) قانون الاهمال أوعدم الاستعمال : إذا لم تتم العلاقة بين المنبه والاستجابة فى زمن محدود ضعف الاتصال بينهما ، واشتدت المقاومة .

(٣) قانون الأثر ، أو قانون النتيجة . إذا تم الاتصال بين المنبه والاستجابة ونتج عن هذا الاتصال حالة ارتياح اشتد الاتصال وقوى ، وإذا نتج عنه حالة عدم ارتياح أو انزعاج أو كدر ضعف هذا الاتصال .

(٤) قانون الاستعداد . عند ما تتوافر شروط احدى الوحدات واستعدادها للتوصيل بين المنبه والاستجابة فإن تم التوصيل ارتاحت الوحدة . وعند عدم توافر الاستعداد للتوصيل فى إحدى الوحدات ، فإن تم التوصيل انزعجت . كما أن كل وحدة تستعد للتوصيل ولا توصل تنزعج

وبمناسبة هذه القوانين عرّف ثورنديك التعليم ، بأنه تقوية الصلات أو تكوين الروابط العصبية بين المنبهات واستجاباتها . يتعلم الانسان التفكير أو لفظ بعض الكلمات أو الجمل استجابة لبعض الأسئلة أو المسائل . نجد مثلا أن «خمسة مضروبة فى ثلاثة » قد صار اتصالها وثيق بلفظة « خمسة عشر » بدرجة أن الطفل كلما يسمع المنبه أو الحالة « خمسة فى ثلاثة » تأتى الاستجابة حالا « خمسة عشر » وكذلك يتعلم المرء أن يشعر بالخوف أو السرور أو الكدر استجابة لظهور بعض الحيوانات أو الأصدقاء أو الأفكار . كما وأن عقلية الانسان وخلقه ومهارته هى مجموع استعداده للاستجابة لمنبهات وأحوال خاصة . وتضع قوانين تكوين الروابط أو العادات أمامنا قاعدتين عامتين (١) ضع معًا ما يجب أن يكون معًا وفرق بين ما يجب أن يكون متفرقًا . (٢) شجع الروابط المرغوبة واجعل الروابط غير المرغوبة تحدث الانزعاج وعدم الراحة . وإذا ما جمعنا هاتين القاعدتين معًا نقول ، كرر وشجع الصلات المرغوب فيها ، وامنع وعاقب الصلات غير المرغوب فيها . وقد أدت التجارب الحديثة التى قام بها ثورنديك إلى تعديل هذه القوانين العامة الخاصة بالتعلم وذلك بحذفه العقاب والانزعاج . وقد كتب فى سنة ١٩٣٢ .

«نحن مسوقون بجميع هذه النتائج الى اقرار الحقائق والمبادىء الآتية :

(١) أن الأثر المريح الذى ينتج عن عملية الاتصال والترابط مما يمكن الاعتماد عليه لتقوية هذا الاتصال

(٢) أن الأثر غير المريح أو المزعج الذى ينتج عن الاتصال فى بعض المناسبات غير ثابت المفعول فى اضعاف قوة الاتصال » .

وفضلا عن حذف العقاب كعامل مهم فى اتيان التعلم فقد وجد ثورنديك من الضرورى أيضاً حذف التدريب فى حد ذاته كعامل فعّال فى عملية التعلم . قال ثورنديك « لقد عملنا تجارب قمنا فيها بملاحظة أثر الترابط الذى يكرر مرات عديدة ومقارنة ذلك بأثر الترابط الذى لا يكرر الا مرات قليلة . كما أننا قارنا الترابط الشديد الاثر مع الترابط الضعيف . وقد برهنت التجارب على وجه العموم و بمقدار لا بأس به من الثبات والتجانس على ان التكرار المتعدد القوى يؤثر بنسبة ضئيلة لا تزيد على التكرار القليل مما يمكننا أن نفرض أن الكسب يعادل صفراً . »

« ولو فرضنا أن حالة ما تؤثر فى إنسان ألف مرة فى الأسبوع لمدة سنة فإنه يستجيب فى آخر أسبوع من السنة كالأسبوع الأول تماماً دون فرق على الاطلاق »

وعند ما وجد ثورنديك أن التكرار فى حد ذاته لا يقوى الترابط ولا يثبت الصلات وأن عقاب الاستجابة الخطأ لا يجلب وحده الاستجابة المرغوب فيها أعاد قوانينه الخاصة بالتعلم معتمداً على تكرار الترابط وتقوية الصلات فى أحوال تجلب الارتياح

الأهمية المبدئية للاستعداد والتأهب

إذا أخذنا بصحة استنتاجات ثورنديك فإن الاستجابة المرغوب فيها يجب أن يأتيها التلميذ لا المدرس ، و يتحتم أن يتبع تلك الاستجابة الشعور بالارتياح واللذة

تأتى هنا المسألة العملية فى التربية « كيف يمكن المدرس أو الوالد أن يعد بيئة الطفل إعداداً يتمكن به من اتيان الأعمال المرغوب فيها والاستجابة الصحيحة ، وأن يشعر فى نفس الوقت بالرغبة الشديدة والارتياح العظيم لما يأتيه فى حينه »

و إن أقوى عامل يمكن الرجوع اليه فى إعداد الحالة التى تنتج التعلم الفعال، تجده فى قوانين ثورنديك فى الاستعداد : قال ثورنديك « أعتقد أن الميول الفطرية فى

الانسان التى تولد الارتياح أو الانزعاج ، والقبول او الرفض ، تشملها القوانين الثلاثة فى الاستعداد وعدمه .

(١) إذا وجدت وحدة اتصال مستعدة للعمل والتوصيل فإن استعمالها فى هذا العمل مما يجلب اللذة والراحة ما لم يعمل شيء آخر ليغير من عملها .

(٢) إذا وجدت وحدة اتصال مستعدة للعمل والتوصيل فإن عدم استعمالها فى هذا العمل يؤدى الى الانزعاج والألم وينتج عن ذلك الاستجابات الطبيعية التى تثيرها حالة الانزعاج هذه .

(٣) إذا وجدت وحدة اتصال غير مستعدة للعمل والترابط فإن اجبارها على ذلك يؤدى الى الألم وعدم الارتياح .

وأن أهمية هذه القوانين من وجهة التعليم وسهولة فهم مضمونها لتنطبق على التلاميذ مما يوفر علينا بعض الشرح فى هذا المجال .

يجب أن يعرف المعلم التلميذ تمام المعرفة

إذا قبلنا هذه التعليلات الخاصة بأحوال التعلم كان من أول واجبات المعلم أن يتعرف أمور التلميذ الذى يود أن يعلمه . ويجب أيضاً أن يعرف هذا المعلم ماهى أنواع الاستجابات التى يمكن التلميذ أداءها إذ من غير المعقول أن نطالب تلميذاً بعمل شيء أو قضاء أمر لايستطيع القيام به . فان يستطيع التلميذ تعلم نظرية فيثاغورث القائلة بأن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ، مالم يكن ملماً بمعنى كل عامل من العوامل المذكورة فى هذه النظرية. كما يجب على المعلم معرفة استعداد التلميذ لأن يتم مثل هذه الصلات لكى يأتى عمله بالارتياح واللذة لتقوية الروابط نفسها ، ونقول أيضاً إنه اذا لم يكن الاستعداد لإتيان الاتصال المعين موجوداً و إذا لم يتعرف التلميذ الحالة و يفهمها ، و إذا لم تكن الاستجابة مما يمكن التلميذ القيام به ،فلن يتم التعلم تبعاً لمجهودات المعلم الذى قد يتوصل إلى إدراك غرضه بإجباره التلميذ على أداء العمل و إتيان الإتصال .

وليس من المضمون أيضاً أن كل تلميذ يكون مستعداً لتحقيق الاتصال العقلى

الذى يرغب فيه المدرس . وقد يكون غرض التلميذ من قيامه بالتسميع أن يلفت نظر تلميذ آخر بصوته المرتفع لا أن يعطى المعلومات الصحيحة لبقية رفقائه فى الفرقة . فإن دوافع المرء وأغراضه فى أى حين من الأحيان تقرر الروابط التى يرغب فى أدائها وهذه الروابط تقرر بعد ذلك ما يمكن تعلمه فى هـذا الأوان . يعرف المدرس القدير الذى يفهم كل هذه الأمور أنه من المحتم عليـه أن يكون متنبهاً لاستغلال الفرصة التي يكون التلميذ فيها مستعداً لإيجاد الاتصال ، وفاهماً الحال ، وفى مقدوره أداء الاستجابة المطلوبة

و إن جهل مدرسين كثيرين لهذه الحقائق مما يؤخر عملية التعلّم و يضعف مقدار ما يكتسبه التلاميذ . وكثيراً ما نجد مدرسين يقولون إن هذه المعرفة غير ضرورية إذا كان المدرس عارفاً بمادته ، غير أننا إذا أردنا ضمان التعـلم فى التلميذ فلا بد من معرفتنا له تمام المعرفة حتى نستطيع أن نقوم بتقديم الشرح اللازم وعمـل التجارب والحث على تأدية الواجب واقتراح طريقة للعمل و إرشاده الى طريق الصواب .

ونستنتج من هذا الرأى أنه من اللازم على المعلم أن يقضى أغلب وقته وجهوده فى ملاحظة التلميذ ودرسه . إذ نشـاهد أن الطبيب الماهر لا يصرف كثيراً من وقته فى معالجة مرضاه ولكنه يقضى الســاعات الطوال فى ملاحظتهم وامتحانهم واختبارهم والتعرف على أحوالهم وما يحتاجون اليه ، يقوم الطبيب بعملية التشخيص أولا ثم يصف بعد ذلك العلاج الذى يقوم المريض بتنفيذه فيعمل التمرينات المعينة و يتبع الغـذاء والأدوية والعلاج المقرر . ويجب على المدرس القدير أن يتبع مثل هذه الطريقة فى تأدية عمـله فيدرس تلاميذه بكل عناية ودقة ليتعرف على كفايتهم ورغباتهم وطموحهم وميولهم وحاجاتهم . ثم يلقى عليهم فى الفرص المناسـبة اقتراحاته لكى يحثهم على العمل و يدفعهم اليه فيحصل على استجاباتهم للأحوال الراهنة وفى نفس الوقت يضمن شعورهم بالارتياح لما يعملون . وخلاصة القول أن التشخيص والإرشاد من أول واجبات المدرس ومن أهم أعماله .